مواجهة الغزو الثقافي في الوطن العربي

مساهمة في التمهيد لوضع مشروع استراتيجية ثقافية

محمود امين العالم

منذ ما يقرب من عامين ، انعقد في دمشق في الفترة من ٢٨ إلى ٣٠ حزيران (يونية) ١٩٨٠ ، مؤتمر للوزراء العرب المسؤولين عن الشؤون الثقافية ، وذلك لمواجهة الغزو الصهيوني بعد توقيع اتفاقيتي كامب دافيد بين مصر واسرائيل والأخذ في تطبيع العلاقات بينهما ، بما في ذلك العلاقات الثقافية .

على أن مناقشات المؤتمر التي انعكست ـ الى حد ما ـ في بيانه الأخير ومقرراته ، لم تقصر مفهوم هذا الغزو الثقافي على الغزو من الخارج فحسب ، ولم تنسبه إلى الصهيونية وحدها ، ولم تحصر خطره على مصر ، وانما أبرزت ـ إلى حد ما ـ أن هذا الغزو هو جزء من مخطط صهيوني امبريالي عام .

ولقد غلب على قرارات ذلك المؤتمر الطابع الاجرائي العملي ، الذي يحدد أهدافاً معينة ، ويعدد خطوات لتنفيذها ويشكل لجنة لمتابعة هذا التنفيذ ، فضلاً عن اقرار ميزانية خاصة لتمويل خطوات التنفيذ .

على أنه برغم الجهود الكبيرة الرصينة التي بذلتها الدكتورة نجاح العطار وزير الثقافة في سوريا ، والتي عينت رئيساً للجنة المتابعة ، فلم يتحقق شيء من أهداف المؤتمر ، فما اجتمعت لجنة المتابعة ، وما توفرت الميزانية ـ وما اتخذت خطوة من خطوات التنفيذ . وأصبح البيان الختامي للمؤتمر لا ختاماً للمؤتمر بل ختاماً للقضية التي انعقد من اجلها المؤتمر .

وأتساءل اليوم بعد مرور عامين : لماذا ؟ لقد انعقد المؤتمر بمشاركة أهل الحل والعقد في الشؤون الثقافية العربية ، فلماذا لم يتم لا حل ولا عقد لهذه القضية الثقافية ؟ ولقد انتهى المؤتمر إلى قرارات اجرائية محددة ، ممكنة التنفيذ عملياً ، لا إلى مجرد شعارات عامة مجردة ، فلماذا لم تتخذ خطوات لتنفيذها ؟ هل الطابع الرسمي للمؤتمر هو الذي عاقه عن تنفيذ قراراته ؟ وعندما أذكر الطابع الرسمي ، فلست أقصد البيروقراطية ـ هذا المفهوم الذي يستخدم كثيراً لطمس وتغييب ما وراءه من دلالة اجتماعية ـ . وانما أقصد بالرسمية ، الحكومة ، وأقصد بالحكومة تعدد الحكومات وأقصد بتعدد الحكومات تعدد السياسات وأقصد بتعدد السياسات تعدد المواقف الفكرية والايديولوجية من الامبريالية والصهيونية . وعندما استخدم كلمة تعدد فانما أقصد التنوع بل الاختلاف بل التعارض والتناقض في السياسات والمواقف . فكيف كان من الممكن أن تتم وحدة عمل اجرائي مع تنوع واختلاف وتعارض السياسات والمواقف ازاء الامبريالية والصهيونية ، وخاصة اذا كان هذا العمل الاجرائي يتعلق بالثقافة ، أي بالموقف الفكري والايديولوجي ؟ واليوم أدرك تماماً أن رذيلة ذلك المؤتمر كانت في فضيلته . فالطابع الاجرائي العملي لقرارات المؤتمر هو تلك الفضيلة التي عرقلت تحقيق هذه القرارات . فلو أن المؤتمر انتهى إلى قرارات عامة مجردة ، طنانة رنانة ، تسبّ الثقافة الصهيونية ، وتلعن متعاطيها ، وتتغنى بالمتصدّين لها ، وتدعو إلى الجهاد المقدس ضدها ، حماية ودعماً للشخصية العربية الأصيلة ، لاستطاع المؤتمر أن يصل إلى تحقيق أهدافه تحقيقاً « رسمياً » كاملاً ، ولاختفت الاختلافات والخلافات ، ولتحققت وحدة الكلمة العربية على مستوى رفيع يؤكد ـ كما تأكد دائماً ـ عمق وأصالة الوحدة القومية . أما ان تؤكد قرارات ذلك المؤتمر على الدعوة إلى « التعاون مع الثقافات والجمعيات والهيئات والشخصيات الثقافية المصرية التي تنهج خطاً وطنياً معادياً للصهيونية ونظام السادات وتقديم كل دعم ممكن لها » وان تؤكد هذه القرارات على ضرورة « دعم مؤسسات النشرة الوطنية في فلسطين المحتلة والى اعادة نشر وتوزيع ما يصدر عنها من كتب ثقافية وأدبية وتنظيم أسابيع للثقافة الفلسطينية في البلدان العربية » وأن تؤكد هذه القرارات على مطالبة « وزارات التربية العربية على أن تدخل في برامج التربية تدريس أخطار كامب دافيد في مختلف مجالات الحياة العربية الثقافية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية » وأن تؤكد هذه القرارات على « مسألة الديمقراطية في

الثقافة العربية وحرية الأديب والمفكر العربي واعتبار ذلك هو القاعدة الاساسية التي تقف عليها الثقافة العربية في مواجهة الغزو الثقافي الامبريالي والصهيوني » أما أن تؤكد قرارات المؤتمر تلكم الأمور وأموراً أخرى ليست أقل أهمية ، فكيف نتوقع من مؤتمر وزارات الثقافة « الرسمية » رغم تصديق ممثلي هذه الوزارات على تلك القرارات ، أن تتوفر له النية والحماس لتنفيذها ؟ والحق أننا في السياسة قد نستطيع أن نصل إلى وحدة عمل عربي حول ما يسمى ببرنامج الحد الأدنى ، وقد نستطيع في الاقتصاد أن نجد نقاط عمل مشترك بين الأنظمة العربية المختلفة والمتعارضة ،وقد نستطيع في الأمور العسكرية أن نقدم معونات مالية أو نبعث بفرق صغيرة رمزية تعبيراً عن التضامن العربي ، أما في الشؤون الثقافية في الفكر ، فان الأمر يمس جوهر وجذر الموقف السياسي والاقتصادي والاجتماعي ، جوهر وجذر الخلافات والاختلافات بين الأنظمة العربية فيما بينها ، ومن هذه الاختلافات الحركات والتنظيمات الوطنية والتقدمية في عالمنا العربي . ولهذا قد يكون من العسير للغاية الاتفاق حول مستوى الحد الأدنى الثقافي أو الفكري . واذا كان من الجائز أن يتم هذا الاتفاق اعلاناً وبياناً ، تأكيداً لوعي زائف بتضامن عربي غير موجود ، فلا سبيل إلى أن تصبح عناصر هذا الاعلام والبيان ، وقائع حية عينية ملموسة .

وهكذا كان بالدقة مصير قرارات مؤتمر دمشق لمواجهة الغزو الثقافي الصهيوني : مجرد سان بغير تبيين .

على أنه من الواجب أن أشير ـ من ناحية أخرى ـ الى أنه برغم ما اشتملت عليه قرارات ذلك المؤتمر من بنود عملية جيدة ، إلا أنها في الحقيقة ، نتيجة لطابعها العملي الخالص قد تورطت في موقف اجرائي عام يكاد يصدر عن رؤية تجزيئية للمعركة ضد الامبريالية والصهيونية . فنلاحظ مثلاً في تلك القرارات أن أغلب بنودها تكاد تقتصر على الحركة الثقافية في مصر وفي فلسطين المحتلة كأنما خطر الثقافة الامبريالية والصهيونية كامن في مصر وفي فلسطين المحتلة وحدهما دون سائر البلاد العربية ، رغم الاشارة إلى ذلك في ديباجة البيان الختامي للمؤتمر . ونلاحظ كذلك أنه لا اشارة واضحة إلى الفكر الرجعي العربي أو إلى طبيعة العلاقة بينه وبين الفكر الامبريالي الصهيوني ، فضلاً عن أن الاشارة إلى الامبريالية جاءت في البيان الختامي وفي القرارات على نحو عرضي وهامشي ، ولهذا لم تتضح الرؤية الكافية في النسيج العام للبيان وللقرارات ، بان النضال ضد الامبريالية حتى في الحدود الثقافية ، انما يتمثل أساساً في النضال من اجل تحرير البلاد العربية من التبعية السياسية والاقتصادية للامبريالية عامة وللامبريالية الأمريكية بوجه خاص .

على أنه برغم هذه النواقص المهمة التي جاءت نتيجة لما تميزت به قرارات مؤتمر دمشق من فضيلة هي غلبة الطابع الاجرائي العملي على قراراته فلا شيء تحقق من هذه القرارات

واذا كان هذا هو مستوى ومصير قرارات المؤتمر الرسمي ، فاننا نأمل أن يكون مستوى ومصير قرارات مؤتمرنا الشعبي أفضل ، سواء من حيث الوضوح والحسم والشمول الفكري ، أو من حيث التحقق العملي ، وخاصة ان التصدي للثقافة الصهيونية والامبريالية فضلاً عن الرجعية ، لا تقوم به وزارات الثقافة ، وان أمكن أن توفر له الاحتياجات العملية ان كان من مصلحتها وفي توجهها الفكري ذلك ، وانما الذي يقوم به وسيقوم به المثقفون أنفسهم . على أن القضية ليست تمييزاً شكلياً بين مؤتمر رسمي ومؤتمر شعبي ، فالمعيار الحقيقي هو الموقف الفكري والمنهج الموضوعي العملي لكليهما . فلسنا ننكر أنه في المستوى الرسمي لبعض البلاد العربية هناك توجهات ايجابية واعية ضد الثقافة الامبريالية والصهيونية والرجعية ، كما أننا نجد بين المثقفين العرب من جعلوا أنفسهم أبواقاً للفكر الرجعي ، بل الصهيوني الامبريالي ، بعضهم يعبر عن هذا بوعي جهير ، وبعضهم ـ بوعي أو بغير وعي ـ يحقق الأمر نفسه .

إن هذا الفكر وتلك الثقافة هي جزء من اجهزة القمع والتسلط والاستغلال والعدوان والجمود والعنصرية والتضليل والتزييف التي يحققون بها أهدافهم المعادية لانسانية الانسان .

على أن هذا الفكر وتلك الثقافة ، تتخذ أشكالاً وأساليب ومناهج واضحة متنوعة متلونة ، تخفي بها حقيقة أهدافها وحقيقة انتسابها الامبريالي الصهيوني .

ولهذا فالمعركة ضد الثقافة الامبريالية والصهيونية والرجعية ، ليست بالمعركة السهلة أو المباشرة . انها ليست مجرد مواجهة صدامية مع رأي أو فكرة أو كتاب أو فيلم أو مسرحية ، انما هي معركة شاملة مع رؤية شاملة تتجسد ، نعم تتجسد في مختلف المفاهيم والعلاقات والممارسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية فضلاً عن الثقافية . وبدون هذا الفهم الشامل لن نستطيع أن نواجه تلك الثقافة مواجهة موضوعية حقيقية ، ولن نستطيع هزيمتها .

إن البدء بتحديد الاسس المبدئية العامة لطبيعة وحدود معركتنا ضد تلك الثقافة هي ضرورة منهجية وفكرية ينبغي الاتفاق عليها منذ البداية حتى لا تستنفدنا وتشتتنا في النهاية قرارات اجرائية خالصة ، تفتقر الى الرؤية المبدئية الشاملة .

واسمحوا لي أن أكرر نفسي ، فأضمن كلمتي هذه بعض فقرات من الكلمة التي ألقيتها في افتتاح المؤتمر الرسمي لوزراء الثقافة في دمشق منذ عامين ، الذي تشرفت بالمشاركة فيه باسم الجبهة الوطنية المصرية في الخارج ، فما تزال تلك الفقرات القديمة صالحة كمدخل ابتدائي ومبدئي لما أريد أن استخلصه من مقترحات عملية لمواجهة الثقافة الامبرياليه الصهيونية الرجعية .

إن الانتكاس السياسي والاقتصادي في مصر قد بدأ التمهيد له ثقافياً وايديولوجياً قبل أن تبرز بشكل واضح مظاهره السياسية والاقتصادية ، لقد بدأ بتلك الحملة الخسيسة الشرسة ضد المفاهيم والقيم التي أضاءت وجه « مصر جمال عبد الناصر » مصر العداء

للامبريالية والصهيونية ، مصر الثقافة الوطنية والتقدم الاجتماعي ، مصر الوحدة القومية العربية . وبدأ الانتكاس بالاجهاز على عشرات المنابر الثقافية والاعلامية المستنيرة ، كالكاتب والطليعة والفكر المعاصر ، وتراث الانسانية ومجلات الشعر والقصة والمسرح والسينما إلى غير ذلك . وبدأ بطرد المثقفين المصريين المستنيرين من مختلف مراكز الثقافة ووسائل الاتصال الجماهيري وبتشريدهم أو سجنهم وبدأ بمحاولة تشويه الوجه المشرق لنضالات الثورة الفلسطينية وقيادتها المتمثلة في منظمة التحرير الفلسطينية . بدأ باهدار قيم الصداقة والتحالف النضالي مع القوى الوطنية والتقدمية في العالم وفي مقدمتها الاتحاد السوفياتي ، بدأ بتبييض صفحة أعدى أعداء أمتنا العربية : الولايات المتحدة الأمريكية ووضع أوراق الثقة السياسية الكاملة في يدها ، وبدأ بتزييف مفاهيم السلام والرخاء والاستعمار والصهيونية والتقدم والحضارة وافراغها من دلالاتها الحقيقية ، بدأ باشاعة روح التسطح والابتذال والتضليل والتعصب والطائفية في مختلف اجهزة الثقافة والاعلام ، بدأ بالقهر والقمع للحوار الفكري الديمقراطي ، والابداع الثقافي الجاد ، مستغلاً بغير شك الأمية التي ما تزال مستشرية في مجتمعاتنا ، سواء كانت أمية أبجدية أو فكرية . . .

نعم كانت الثقافة والايديولوجية هي المدخل للانتكاس ، المدخل الذي وظفته الأجهزة الساداتية منذ البداية تمهيداً لتمرير الأهداف السياسية والاقتصادية للمخطط الامبريالي الصهيوني بعد ذلك . على أن هذا المدخل ، ما لبث أن أخذ يسعى كي يصبح ركيزة للمخطط نفسه في مرحلة تنفيذه ، تبريراً له وترسيخاً .

إن الأنظمة الرجعية تحكم وتقمع بالايديولوجية التضليلية ، بقدر ما تحكم بأشكال القمع المباشرة .

والحق ، أنني أردت أن أقول ببساطة وصراحة ، أن المحنة الثقافية التي نشهدها اليوم في مصر ، ليست مجرد غزوة صهيونية ثقافية وافدة من الخارج فحسب بل هي بنية ثقافية ، ايديولوجية داخلية ، أفرزتها وتفرزها الهياكل السياسية والاقتصادية الرجعية التابعة السائدة في مصر اليوم ، تكريساً واعادة انتاج لهذه الهياكل نفسها . وهذه البنية الثقافية والايديولوجية المهيمنة هي التي تمهد السبيل لاستقبال الثقافة الامبريالية والصهيونية بل واستنباتها . والحق ، مرة ثانية أنني أردت بهذا أن أقول ببساطة وصراحة كذلك ، إن الخطر الذي يهدد قيم الثقافة العربية ، التي هي تعبير عن قيم الثورة العربية ، لا يكمن فحسب في هذه الغزوة الامبريالية الصهيونية لمصر ، وانما يكمن هذا الخطر كذلك في كثير من الأوضاع العربية عامة بما تشكله من هياكل وأبنية سياسية واقتصادية وثقافية وايديولوجية تعد صالحة لافراز واستقبال واستنبات قيم ومفاهيم هذه الغزوة الثقافية الامبريالية الصهيونية الخارجية ـ الداخلية ، ان الثقافة ـ كما تعرفون ـ ليست قيماً ومفاهيم وأذواقاً وأساليب حياة معلقة في فراغ ، بل هي تعبير حي عن أوضاع وهياكل سياسية واقتصادية واجتماعية ، فضلاً عن أنها قوة فاعلة دافعة ومؤكدة ومجددة لهذه الأوضاع والهياكل نفسها .

وليست هناك ثقافة تُفرض فرضاً من الخارج ، ان لم تجد الأرضية المواتية لها بل المستنبتة لها كذلك . والثقافة هي أداة الوعي بالواقع وأداة السيطرة عليه وتوجيهه . ولكن أي وعي ؟ وأي واقع ؟ ولمصلحة من تتم السيطرة ويتم التوجيه ؟ هذه هي القضية .

والقضية هي أننا لن نواجه الثقافة الامبريالية والصهيونية ، بثقافة تنطق باللغة العربية وتخولنا في الوقت نفسه تراث هذه اللغة مضموناً ، وفكراً ، بثقافة تتشدق بشعارات قومية وتقدمية طنانة رنانة تتناقض مع ممارسات الواقعية ، وانما نواجه الثقافة الامبريالية والصهيونية بثقافة تنطق بلغة الممارسة الوطنية الديمقراطية الصادقة الحية ، بثقافة تنطق بلغة التراث العربي الاسلامي الأصيل العظيم . وبكل ما يحتشد به من قيم العقلانية والاستنارة والابداع والخلق وروح النقد والاجتهاد والتجدد ، بثقافة تنطق بلغة التحرر والعدالة والتقدم الاجتماعي والتفتح الانساني والديمقراطية في العلاقات والأنظمة والمؤسسات العربية ، بثقافة عربية هي وعي بضرورة الوحدة القومية العربية على أساس من الديمقراطية والتقدم الاجتماعي والعداء الحاسم للامبريالية والصهيونية فكراً وقيماً وأساليب حياة ونظم حكم .

هكذا ينبغي أن نواجه الثقافة الامبريالية والصهيونية ، ثقافة التعصب واللاعقلانية ، والفاشية والاستغلال والقهر والعنصرية والطائفية وروح الانانية الفردية والاستهلاكية والاستعلاء والعدوانية . .

نواجه الثقافة الامبريالية والصهيونية لا بمفاهيمها وقيمها كما تُمارس أحياناً وانما بنقيض هذه المفاهيم والقيم . فثقافتنا العربية المعبرة بحق عن أصالتنا القومية وعن ضرورات تحررنا وتجددنا وتقدمنا هي بالضرورة النقيض المباشر لهذه الثقافة الامبريالية والصهيونية . ولهذا فثقافتنا العربية لا يمكن ولا ينبغي أن تكون ثقافة التعصب والجمود واللاعقلانية والطائفية والقمع والاستبداد والاقليمية والعنصرية والاستغلال وخلق روح الابداع والتجدد والديمقراطية . ولا يمكن ولا ينبغي أن تكون ثقافة التسطح والتعتيم والتنميط والتبسيط والابتذال واشاعة روح الاستهلاك والمتع الرخيصة فضلاً عن روح الاستهتار والتخلي واليأس والاستلاب .

إن ثقافتنا العربية التي ينبغي أن نناضل من أجل اشاعتها وتنميتها وتعميقها : هي النقيض المباشر لهذه المفاهيم والقيم التي نراها للأسف تبرز وتمارس هنا وهناك في أوضاع وجوانب مختلفة من أمتنا العربية ، وتكاد أن تصبح الممر والمعبر فالمبرر بعد ذلك للثقافة الامبريالية والصهيونية بشكل سافر أو مستمر . إن الظاهرة الساداتية مستويات وأشكال متنوعة ومتلونة ، فاليقظة اليقظة لها ، والحذر منها . . والمواجهة الصارمة الواعية لهزيمتها . . لا في مصر وحدها بل

في كل وضع عزل يمهد لافرازها ، كيف نواجه هذه الظاهرة الثقافية الساداتية في الوطن العربي . . وكيف نستأصلها وكيف نسعى لحماية وتأصيل وتنمية عروبتنا الثقافية الحقيقية ؟ الحق أنه لا حماية لعروبتنا الثقافية ، بل لعروبة الانسان العربي عامة إلا بحماية انسانية الانسان العربي أولاً وأساساً . . وذلك بوقف مختلف أساليب الامتهان الجسدي والمعنوي ، فضلاً عن مختلف أشكال القمع والقهر الفكري واحترام روح الاجتهاد والنقد والابداع والعقلانية ، وتوفير وحماية الحوار الديمقراطي البناء بين مختلف القوى والتيارات والاجتهادات السياسية والاجتماعية والثقافية ، الوطنية والتقدمية .

فالقضية المطروحة أمام مؤتمرنا هذا ، أن تكن قضية ثقافية ، فانها كذلك كما ذكرت في البداية ، غير منفصلة عن الأوضاع السياسية والاقتصادية والعسكرية عامة أي عن المخطط الامبريالي الصهيوني الشامل ضد الثورة العربية عامة والفلسطينية بوجه خاص . ولهذا ، فليس يكفي أن نقول لا . . للسادات فالذي يقول لا . . للسادات ويقول نعم لأمريكا ، انما يقول ألف نعم للسادات وألف نعم للصهيونية . والأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية هي حقل استنبات للقيم والمفاهيم الثقافية . نعم . . . ما أحوج الأمة العربية ، الى استراتيجية سياسية شاملة ، توحد موقفها الاستقلالي الوطني فكرياً وعملياً في مواجهة الامبريالية والصهيونية ، وما أحوج الأمة العربية إلى استراتيجية اقتصادية تحقق تكاملاً اقتصادياً بين ثروة أراضيها وانتاجية ابنائها ، ودفعاً لتطورها المستقل التوحيدي ، وقهراً للتخلف وتصدياً للاستغلال والنهب الامبريالي وشركائه المتعددي الجنسية ، وما أحوج الأمة العربية أخيراً إلى استراتيجية ثقافية دعماً لهذه الجوانب الاستراتيجية السياسية والاقتصادية والعسكرية وتصدياً فعّالاً ايجابياً للثقافة والايديولوجية الامبريالية الصهيونية الرجعية . وما أحوجنا إلى التصدي بحسم للأمية ، هذا العار على جبين الثقافة العربية والمثقفين العرب ، وما أحوجنا إلى تعميق وعينا النقدي . بالتراث العربي الاسلامي العظيم وما أحوجنا إلى تنسيق الجهود الثقافية العربية على المستوى القومي العام تنمية وتعميقاً للابداع الثقافي عامة على أساس من احترام الاجتهادات المختلفة ، وتوفيراً لروح الموضوعية والعقلانية والديمقراطية .

في ضوء هذه الكلمات القديمة وفي ضوء خبرة مؤتمر دمشق اسمحوا لي أن أستخلص وأن أوضح بعض المبادىء التي يمكن أن تكون قاعدة لما نقترحه من سياسات ومواقف واجراءات أو استراتيجية ثقافية عربية في مواجهة الثقافة الامبريالية الصهيونية الرجعية .

أولاً : ليست هناك ثقافة يمكن فرضها من الخارج فرضاً ، اذا لم تجد في البنية السياسية والاقتصادية والايديولوجية الداخلية ما يتيح استقبالها وتقبلها بل واستنباتها وتوظيفها اجتماعياً . فأثر الثقافة الخارجية لا يثمر الا عبر الحقل الايديولوجي السائد المعبر عن البنية السياسية الاقتصادية السائدة . فما كان للفكر الامبريالي الصهيوني أن يكون له صدى مؤثر في مصر خلال المرحلة الناصرية لا للمواقف السياسية المعادية للامبريالية والصهيونية خلال هذه المرحلة ، وانما ـ أساساً ـ لطبيعة البنية السياسية ـ الاقتصادية ـ الاجتماعية التي كانت تنمو وتتجذّر شيئاً فشيئاً ، وكانت تنمو معها وتتجذر كذلك ثقافة وطنية ديمقراطية معادية للامبريالية والصهيونية والرجعية عامة . ومع الانقلاب والانتكاس على هذه البنية خلال المرحلة الساداتية أخذت تنمو بنية سياسية واقتصادية تابعة للامبريالية ، وتنتعش معها أيديولوجية رجعية دعماً للبنية السياسية ـ الاقتصادية الجديدة ، وحقلاً لاستقبال واستنبات مفاهيم وقيم الثقافة الصهيونية والامبريالية . وعلى طول البلاد العربية وعرضها سنجد تلك القيم والمفاهيم منتعشة رائجة حيث يسود الفكر الرجعي الجامد المتخلف .

وما أسهل أن تتقلص القضية أو تتضخم حول « القدس » رمز الطابع الديني الذي يتخذه الصراع كما تتخذه المسالمة كذلك ، أما العدوان فما أسهل ما تتكشف له تسويات سلمية تفضي بالضرورة الى تنازلات ، ثم إلى تبادل الاعتراف . والحق أننا لو تأملنا الخطوات التي خطاها السادات منذ زيارة القدس حتى اتفاقيات كامب دافيد ، لوجدنا وراءها هذه الخطوات الفكرية الايديولوجية التي تتضمن في جوهرها تغييب الايديولوجية الصهيونية ، هذا التغييب الذي نتبيّنه في خطاب السادات في الكنيست وفي دعوته إلى لقاء الاديان الثلاثة في بقعة مقدسة من سيناء ، ويكون الرموز الثلاثة لها هم السادات وكارتر وبيغين ، كما نتبينه في كلمات السادات وتوفيق الحكيم حول « المتحضرين » ويقصد بهم الاسرائيليين ، كما نتبينه في اقتراح الملك الحسن حول اللقاء المثمر بين العبقرية اليهودية والأموال العربية ، إلى غير ذلك . إن الخطر الأساسي على ثقافتنا وايديولوجيتنا هو في تغييب حقيقة الايديولوجية الصهيونية لا في تبينها ، والحق أن الذي يقوم بهذا التغييب ليس الصهاينة ، فما أكثر ما يتباهون ويتغنون في صهيونتهم ، انما الذي يفعل ذلك هي الأنظمة العربية الرجعية عبر صحافتها وايديولوجييها ومثقفيها وممارساتها السياسية العملية ، على أني اذا كنت أحدد أن الخطر الأساسي على ثقافتنا هو تغييب الحقيقة الصهيونية ، فليس معنى هذا أنه ليست هناك أخطار أخرى على ثقافتنا من الثقافة الصهيونية . على أنها في معظمها تصدر عن هذا الخطر الاساسي ، سلباً أو ايجاباً ، كانبهار ، أو كتيئيس أو

كرد فعل معاكس في شكل تعصب ديني أو تعصب قومي ، أو عنصرية أو طائفية أي صهيونية معكوسة ، الى غير ذلك ، فضلاً عن محاولات طمس الوعي التاريخي العربي وتشويهه .

ولهذا فان فضح الحقيقة الصهيونية في غير هوادة ، وفضح محاولات تغييبها من جانب القوى الرجعية العربية ، قضية بالغة الأهمية في التصدي للثقافة والايديولوجية الصهيونية ، وما يصدر عنها من آثار وأخطار أخرى نتيجة لتغييب حقيقتها .

ثانياً : ونتساءل كذلك حول الثقافة الامبريالية ، ما حقيقة الخطورة التي تمثلها والتي ينبغي أن نتصدى لها ؟ طبعاً ان الثقافة الامبريالية لا تريد أن تجعل منا امبرياليين كما أن الثقافة الصهيونية لا تريد أن تجعل منا صهيونيين . كلاهما يريد أن يجعل من الثقافة العربية ، ومن الفكر العربي ، ومن الإيديولوجية العربية ، فكراً وثقافة وايديولوجية تابعة للفكر الامبريالي الصهيوني ، وذلك باشاعة مفاهيم وقيم وأذواق وتصورات تحرمه العقلانية ، والاستقلالية والابداعية والذاتية والحس التاريخي والقدرة على السيطرة على واقعه الوطني ، وتحقيق ثورته الديمقراطية ووحدته القومية . والامبريالية ، وخاصة الامبريالية الامريكية ـ تحقق هذا عبر الحقل الايديولوجي للفئات والطبقات العشائرية والاقطاعية والبورجوازية المسيطرة في العالم العربي . إن اشاعة وتعميم الرؤية الامريكية للحياة هي جزء أساسي من برنامج المعونات السياسية والاقتصادية للبلدان النامية ، فيها تتحقق التبعية الفكرية والثقافية ، دعماً وتكريساً للتبعية السياسية والاقتصادية . إن سيادة روح الفردية والمغامرة والعصامية ، والنخبوية ، والبرهانية ، والنظرة التجزيئية ، واللاعقلانية والوضعية واللاتاريخية ، فضلاً عن النزعة الاستهلاكية والانبهار بالمظاهر ، والسطحية والعدوانية هي بعض القيم والمفاهيم التي تقدمها ترسانة الرؤية الأمريكية للحياة عبر افلامها واعلامها وكتبها بل عبر نظرياتها السيكلوجية والاجتماعية . على أنها ـ كما ذكرت في البند الأول ـ لا تُفرض فرضاً من الخارج ، وانما تستجيب للاحتياجات الايديولوجية للابنية السياسية والاقتصادية السائدة في البلاد العربية ، بل هي في كثير من الاحيان تستنبت استنباتاً محلياً ، أو تدعم الاستنبات المحلي عن طريق اعداد اطارات عربية ثقافية مشحونة بالمنهجية الأمريكية ، وذلك عن طريق البعثات والمعاهد الأمريكية المحلية . وبرغم خطورة هذه القيم والمفاهيم والمناهج المعبرة عن الرؤية الأمريكية للحياة وعن الأبنية العربية الرجعية ، فان الخطر الاساسي على ثقافتنا وايديولوجيتنا العربية لا ينبع منها في المحل الأول ، وانما من تغييب حقيقة الامبريالية عامة ، والامبريالية الامريكية خاصة عن الوجدان العربي ، عن الفكر العربي ، عن السياسات والممارسات العربية .

فالولايات المتحدة الأمريكية لم تعد ، في الكتابات والممارسات السياسية لأغلب البلاد العربية ، هي رأس الامبريالية العالمية ، رأس الاحتكارات وشركات السلاح والاستغلال والعدوان ودفع العالم إلى حافة هاوية الحرب ، بل هي مجرد الدولة العظمى ، الولايات المتحدة الأمريكية ، التي في يدها ٩٩ ٪ من أوراق مشكلة العدوان والتوسع الاسرائيلي . فلماذا اذن لا نتحالف معها تحالفاً استراتيجياً يحقق لنا أهدافنا الوطنية ، ولماذا ـ كدولة عظمى حليفة ـ لا تقدم لها مصر والسعودية وعمان والصومال والسودان وغيرها قواعد عسكرية أو تسهيلات عسكرية ، ولماذا لا تُسلَّح جيوشنا بأسلحتها ، ولماذا لا نستفيد بخبراتها السياسية والاقتصادية والتعليمية والثقافية فضلاً عن النفطية والعسكرية . انها ليست أسلحة أو خبرات أو قواعد للامبريالية الأمريكية ، لا ، وانما لدولة الولايات المتحدة الأمريكية ، الدولة العظمى . . ثم لماذا لا نسعى لتحييد هذه الدولة العظمى في صراعنا ضد اسرائيل ولماذا لا نتنافس على صداقتها ونكسب ودها أكثر مما تفعل اسرائيل مع هذه الدولة العظمى ، وبهذا لا نسعى إلى تحييدها فحسب بل إلى اتخاذ وسيلة للضغط على اسرائيل بها ؟ وهكذا بتغييب الحقيقة الامبريالية للولايات المتحدة ، فضلاً عن بعض البلدان الرأسمالية الأخرى ، كفرنسا والمانيا الغربية واليابان ، ينفتح باب التبعية الكاملة السياسية والاقتصادية والثقافية للامبريالية العالمية والأمريكية خاصة ، بل تبرر مواقف التواطؤ التي تقفها الامبريالية العالمية والامريكية مع اسرائيل . فهذا المنطق الذي يغيب الحقيقة الامبريالية كما يغيب الحقيقة الصهيونية ، يسعى لبذر الأوهام حول استقلال اسرائيل عن الولايات المتحدة الأمريكية ، بل حول الضغوط التي تعانيها الولايات المتحدة الأمريكية من « اللوبي » اليهودي الأمريكي الموالي لاسرائيل . فلا تكون اسرائيل أداة امبريالية ، بل تصبح الامبريالية الامريكية أداة لاسرائيل . . ومن تغييب الحقيقة الامبريالية والحقيقة الصهيونية ، يتم تغييب العلاقة العضوية الحميمة الوطيدة بين الصهيونية العالمية والامبريالية العالمية ، أو بين الرأسمالية اليهودية الكبيرة والاحتكارات العالمية تحت قيادة الولايات المتحدة الأمريكية . حقاً ، هناك تمايز هامشي وجزئي بين اسرائيل والولايات المتحدة الأمريكية ، ولكن في اطار تلك العلاقة العضوية الامبريالية العالمية ، وخلق قيادة وسيطرة الاحتكارات الامريكية .

إن تغييب الحقيقة الامبريالية للولايات المتحدة الأمريكية أساساً

هو الخطر الاساسي الذي تتعرض له ثقافتنا وايديولوجيتنا ، ومن هذا التغييب يسهل استنبات أو استقدام أو تبني مختلف المفاهيم والقيم والمناهج الأخرى التي تشكل الرؤية والمنهجية الامريكية للحياة . فهي ليست رؤية الامبريالية الامريكية بل رؤية الحضارة الامريكية المزدهرة الناجحة !

ولهذا فان فضح الحقيقة الامبريالية ، والامريكية خاصة ، وفضح محاولات تغييبها والكشف الدائم عن وجهها القبيح قضية بالغة الأهمية بل حاسمة في التصدي للثقافة الامبريالية والصهيونية على السواء وما يصدر عنهما من آثار وأخطار .

ثالثاً : ذكرنا من قبل أن الثقافة الامبريالية الصهيونية لا تفرض فرضاً من الخارج وانما تقبل بل تستنبت في حقل الايديولوجية العربية الرجعية المعبرة عن الابنية السياسية والاقتصادية والاجتماعية الرجعية ، وان هذا يتم أساساً لا بتبني الثقافة الامبريالية والصهيونية ، وانما بتغييب الحقيقة الامبريالية والصهيونية ، واذا كنا نتبين التبعية السياسية والاقتصادية للامبريالية والصهيونية بشكل مباشر ، فانه من الصعب أن نتبين التبعية الثقافية والايديولوجية بشكل مباشر كذلك . والحقيقة انها ليست تبعية ثقافية وايديولوجية مباشرة ، بقدر ما هي تعبير عن الأبنية السياسية والاقتصادية السائدة بها يكرسها ويدعمها ويعيد انتاجها باستمرار ، محتفظاً بخصوصية توهم استقلالها وتميزها الايديولوجي عن الصهيونية والامبريالية والفكر الغربي عامة . والرجعية العربية ليست فئة متجانسة ، بل تتراوح بين فئات عشائرية قبلية ، وبقايا اقطاعية ، ورأسمالية رجعية ، وبورجوازية طفيلية ، وبورجوازية زراعية ، وبورجوازية كبيرة محلية إلى غير ذلك . ولهذا تتراوح وتختلف كذلك التوجهات الفكرية والايديولوجية عامة ، من حيث المستوى والدلالة وبحسب الملابسات البنيوية الخاصة في هذا البلد العربي أو ذاك . على أنه اذا كانت البورجوازيات الأوروبية الكبيرة تلعب لعبة الليبرالية والديمقراطية الشكلية ـ التي انتزعت منها عبر نضال ديمقراطي طويل وشاق اخفاء لحقيقة النظام الاستعماري والاستغلالي والتسلط الطبقي التي تستند اليه ، فان الرجعية العربية على اختلاف وتنوع أشكالها ومستوياتها تلعب أساساً لعبة التعصب الديني ، والتعصب القومي والطائفية ، أو بها جميعاً في كثير من الاحيان ، لاخفاء التسلط الطبقي ، والقمع والاستبداد والتبعية ، ولتمييع الصراعات الاجتماعية والوطنية . فمن المنطلق الديني يصبح العدو الرئيسي ليس هو المستغل ، وليس هو المستعمر الامبريالي وليس هو الصهيونية ، وليس هو العنصرية بل هو الملحد ، الكافر ، الزنديق . وهكذا تنقسم خريطة المجتمع وخريطة العالم إلى مؤمنين وكفار ، ويصبح الاتحاد السوفياتي أخطر علينا وعلى ثقافتنا من الولايات المتحدة الأمريكية واسرائيل الصهيونية . ويصبح الماركسيون العرب أخطر عليهم من الذين يتاجرون بأقوات الشعوب العربية ويبددون ثرواتها ويبيعون استقلالها بأبخس الأثمان . لست هنا أتحدث عن الدين في ذاته ، وانما عن الدين موظفاً توظيفاً ايديولوجياً لتكريس أوضاع التخلف والاستقلال وعلاقات التبعية . لعلنا لا ننسى رسالة الملك عبد العزيز آل سعود إلى الأمير عبد الله لمحاولة اجهاض ثورة ١٩٣٦ في فلسطين باسم الاتصال بالانجليز بحثاً عن تسوية . ولعلنا لا ننسى أن الرجعية العربية هي التي ساعدت ، بما أثارته وغذّته من قلاقل طائفية ، على اقامة اسرائيل بما دفعت اليها من اليهود العرب الذين يشكلون ما يقرب من ٦٠ ٪ من سكانها . ولنترك هذ التاريخ القديم المرير ، ولنقرأ بضع صفحات من التاريخ المعاصر ، نقرأها في هذه الجريدة اليومية العالمية السعودية التي تصدر في لندن باسم « الشرق الأوسط » .

ففي صدر عدد الجمعة ١٩ مارس ١٩٨٢ نقرأ البيان الذي أصدره مجلس هيئة كبار العلماء بالمملكة العربية السعودية والذي يعتبر فيه القذافي كافراً وضالاً ومضلاً . انهم لا يتهمون القذافي في عقيدته فحسب ، بل يدينون كل « أقواله وأفعاله وتقلباته في جميع ميادين عمله داخل بلاده وخارجها » انهم اذن يحكمون الدين ويتخذونه سنداً لادانة السياسة الداخلية والخارجية . وهم في الحقيقة لا يفعلون ذلك وانما هم يطمسون أساساً حقيقة الكفر الوطني بل والديني للسياسة السعودية الداخلية والخارجية .

واسمحوا لي أن أعود مرة أخرى الى عدد آخر من اعداد الشرق الأوسط هو عدد الثلاثاء ٢٣ مارس ١٩٨٢ . ففي الصفحة الثانية وفي بروز تحت عنوان « شيخ الأزهر : مساع للتوفيق بين مصر والعرب » تنقل الجريدة عن مجلة « مايو » المصرية حديثاً مع الشيخ جاد الحق شيخ الأزهر الجديد . وتورد من الحديث الفقرة التالية بسؤاله عما اذا كانت معاهدة السلام المصرية ـ الاسرائيلية قد أتت بثمارها المرجوة في مجال السلم ، من وجهة نظر الأزهر البحتة أجاب : « لا شك في أننا قد جنينا اثار هذه المعاهدة . فسيناء العربية المسلمة قد آلت إلى مصر فبعد أيام قليلة تعود الينا وهذا كسب عظيم بلا شك ما كان يمكن أن يحصل إلا بالسلام الذي سلكته مصر مؤيداً بها سلوك الدولة في ذلك » ان شيخ الأزهر الجديد يتغافل عن أن سيناء العربية المسلمة لن تعود إلى مصر بعد أيام قليلة ، بل ستحتلها بل أخذت تحتلها قوات الانتشار السريع الامريكية فضلاً عن قوات غريبة أخرى ، وينسى أو يتناسى شيخ الأزهر الجديد أن مشايخ الأزهر أيام جمال عبد الناصر كانوا قد

أصدروا فتوى اعتبروا فيها الصلح مع اسرائيل خروجاً على الدين . على أن هذا ليس هو ما أردنا بيانه ، وانما أردنا أن نبين كيف أن هذه الجريدة السعودية عندما تنقل هذا الحديث الذي يبارك اتفاقية كامب دافيد ، فانها لا تفعل ذلك من قبيل نشر خبر ، وانما من قبيل الترويج لرأي وان اتخذ هذا الترويج طابعاً حيادياً في ظاهره . كنت أتمنى لولا ضيق المجال ، أن أقف طويلاً مع هذه الجريدة السعودية اليومية التي تتصدرها عبارة « بسم الله الرحمن الرحيم » والتي تعبر تعبيراً بالغ الذكاء والحنكة عن توظيف الدين توظيفاً تطمس به كل معالم صراعاتنا الاجتماعية والوطنية والقومية : عداء ثابت للاتحاد السوفياتي والبلاد الاشتراكية ، تبييض متصل بل تلميع لوجه الامبريالية الامريكية ، تمييع لصراعنا ضد الصهيونية ، دفاع عن الرجعية العربية ، وتهجم على القوى الوطنية والتقدمية العربية .

إنها نموذج فذ لتوظيف الدين لخدمة الفكر الرجعي وتزويق التبعية للامبريالية والصهيونية . اليس الذين يمولون هذه الجريدة هم أنفسهم الذين يحلون أزمات البلاد الرأسمالية بترك أرصدتهم في بنوكها ، ويعاقبون البلاد الوطنية النامية المنتجة للنفط ، باغراق الاسواق بالنفط وخفض ثمنه ، ويقيمون حلفاً عسكرياً استراتيجياً مع الامبريالية الامريكية ، ويجعلون من بلادهم « المقدسة » قاعدة عسكرية عدوانية أمريكية ضد حركات التحرر الوطني العربية والافريقية ؟

ومن منطلق التعصب القومي تُضرب الديمقراطية وتضطهد الاقليات وتصفى النضالات الطبقية والوطنية أو تحرف عن اتجاهاتها الموضوعية ، وتسود المثالية اللاعقلانية والرطانات المجردة المنبعجة الخالية من الحقائق العينية الملموسة ، وتفرض أشكال مثيرة علوية من الوحدات القومية التي سرعان ما تنتكس وينتعش العداء للماركسية ولأحزابها الشيوعية ، باسم الخصوصية القومية ، وتوضع البلاد الاشتراكية والبلاد الرأسمالية على مستوى واحد من حيث التقييم الفكري والسياسي . على أن هذا لا يكون الا في الايديولوجية المعلنة ، أما في الايديولوجية العملية فالتعامل أساساً مع البلاد الرأسمالية ، والممارسات السياسية تخدم موضوعياً في النهاية المخططات الامبريالية والصهيونية .

ويندمج التعصب الديني والتعصب القومي لتشكيل ظاهرة الطائفية ، وهي عنصرية في حقيقتها ، تسعى بمظهرها الديني والقومي إلى اخفاء حقيقتها العنصرية بل الفاشية والى محاولة اخفاء علاقاتها الحميمة بالأنظمة العربية ذات التوجهات الدينية المتعصبة ، أو القومية المتعصبة ، فضلاً عن محاولة اخفاء علاقاتها العضوية مع الصهيونية والامبريالية .

وهكذا يتبيّن لنا انه من منطلق التعصب الديني ، والتعصب القومي والطائفية ، تحقق الصهيونية والامبريالية أهدافها السياسية والاقتصادية بل والثقافية كذلك . فليست أهدافها الثقافية هي أن تتبنى شعوب الأمة العربية الايديولوجية الصهيونية والامبريالية ، وانما أن تنتعش ايديولوجية ذات خصوصية محلية مظهرية يتحقق بها تكريس واعادة انتاج التبعية البنيوية للامبريالية الصهيونية على المستوى الايديولوجي بما يكرس ويعيد انتاج التبعية البنيوية على المستوى السياسي والاقتصادي والاجتماعي .

ولهذا فان النضال الفكري ضد التعصب الديني والتعصب القومي والطائفية ، وضد الفكر الرجعي عامة ضرورة حاسمة كذلك في التصدي للثقافة الامبريالية والصهيونية . ان الاستنارة والعقلانية الدينية ، والنهج الديمقراطي الذي يحترم التنوع والاختلاف في اطار الوحدة القومية ، هما سلاحان بغير شك من أسلحة النضال ضد تلك الثقافة الامبريالية الصهيونية .

رابعاً : إن المعركة الثقافية والفكرية عامة ليست معركة بين أفكار وقيم مجردة ، أي ليست مجرد معركة نظرية بين ايديولوجيتين متعارضتين معلقتين في الهواء ، وانما هي معركة تتم وينبغي أن تتم في حقل التجسيد العيني الملموس للايديولوجية ، أي في اشكال السياسات والممارسات القانونية والاقتصادية والديمقراطية والتعليمية والفكرية والسياسية فضلاً عن الثقافية . ان كل معركة ضد فكر متخلف جامد غير ديمقراطي ، ضد فكر اقتصادي ، ضد فكر سياسي يسوي بين الحلفاء والاعداء هي جزء من المعركة ضد الثقافة الامبريالية الصهيونية .

على أن الفكر والثقافة لا تتجسد في سياسات وممارسات فحسب ، بل في أجهزة وأبنية سياسية كذلك . فالفكر الامبريالي يتجسد في مؤسسات وجامعات وشركات وقواعد عسكرية ومشروعات اقتصادية وبنوك . والصهيونية لا تتجسد فحسب في مختلف مؤسسات الاقتصاد والثقافة والاعلام على المستوى العالمي ، بل تتجسد كذلك في دولة سياسية هي اسرائيل . والفكر الرجعي يتجسد كذلك في سلطة سياسية لدول عربية بعينها ، تستخدم كل أجهزتها الايديولوجية لدعم وتكريس سلطتها . ولهذا فان الصراع ضد الثقافة المعادية لثقافتنا الوطنية والديمقراطية العربية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالصراع السياسي ضد الامبريالية والصهيونية والرجعية العربية .

ولن تكتمل مواجهتنا للثقافة الامبريالية الصهيونية الرجعية الا عبر النضال السياسي ضد الاشكال التجسيدية للسلطة الصهيونية والسلطات الرجعية العربية ، والمراكز والقواعد والهيئات المعبرة عن المصالح الامبريالية في بلادنا العربية . ان المعركة الثقافية ليست مجرد معركة ثقافية نظرية ، وليست مجرد مواكبة أو موازنة للمعركة السياسية ، وانما هي في الجوهر معركة سياسة تستهدف اسقاط الانظمة الرجعية التي هي حصون دفاع وحقول استنبات

للكفر الرجعي الخادم .

إن ثقافتنا ينبغي أن تكون سلاحاً ثورياً في يد النضال السياسي تحقيقاً لأهدافه في اسقاط النظم العربية الرجعية ، واقامة النظم الوطنية الديمقراطية كشرط لتحقيق ثورة ثقافية نقتلع بها جذور الهياكل والأبنية الثقافية الرجعية التابعة للامبريالية والصهيونية .

خامساً : إن المعركة الثقافية الفعالة ، ليست مجرد معركة نخبة متعالية ، بل هي معركة كل الجماهير الشعبية ولن يتوفر لها النجاح إلا بمقدار اتساعها وتعمقها الجماهيريين ومشاركة الجماهير فيها مشاركة وعي وأخذ وعطاء . ولا شك أن الحرص على البعد السياسي للمعركة الثقافية كفيل بتحقيق ذلك .

سادساً : إن الفكر الصهيوني في الممارسة لا يقتصر على العداء لثورتنا العربية كجزء من المخطط الامبريالي العالمي ، وانما يشارك هذا المخطط في محاولة ضرب وتخريب الحركات الوطنية والتحريرية في العالم ، فضلاً عن محاولة تخريب الأنظمة الاشتراكية من الداخل ، وتشويه تجاربها في الخارج . ولست مغالياً ان قلت إن الفكرة الصهيونية تدرك أن النقيض المباشر والعدو الاساسي لها ، هو الفكر الاشتراكي العلمي ، هو الماركسية وهو المجتمعات الاشتراكية التي تزداد تعمقاً . فالفكر الاشتراكي العلمي أي الماركسية تحديداً لا يرى حلاً لقضية اليهود واليهودية الا في الاندماج في مجتمعاتهم ، فضلا عن أنه النقيض المباشر للرأسمالية الاحتكارية والامبريالية التي هي الجذر الطبقي والسند العالمي للصهيونية . والصهيونية تدرك أن الهزيمة العالمية للامبريالية ، والانتصار العالمي للاشتراكية هو مقبرتها النهائية .

وهذا مما يفرض أن تكون معركتنا ضد الصهيونية فضلاً عن الامبريالية جزءاً عضوياً من المعركة العالمية التي تخوضها البلاد الوطنية المتحررة والطبقات العاملة في البلاد الرأسمالية والمنظومة الاشتراكية ضد عدونا المشترك .

سابعاً : النقطة الأخيرة التي نستخلصها من كل ما سبق ، هي أنه لا سبيل إلى مواجهة حقيقية حاسمة للفكر الامبريالي الصهيوني الرجعي ، بالاقتصار على برنامج اجرائي ، رغم أهمية وضع برنامج اجرائي ، وأهمية خلق الأدوات التنفيذية للمقاومة . وانما المهم بل الضروري أن يتم ذلك استخلاصاً من استراتيجية ثقافية ذات رؤية شاملة ، مستندة إلى استراتيجية سياسية شاملة بكل ما يعنيه هذا الشمول من أبعاد اقتصادية وعسكرية واجتماعية وتعليمية واعلامية وعلمية وتكنولوجية .

قد تكون السطور السابقة صالحة لوضع بعض الاسس المبدئية لهذه الاستراتيجية الثقافية ، وان كان من الأفضل منهجياً ، أن تنبثق من استراتيجية سياسية أشمل . ولكن يبقى كذلك أن تترجم هذه الاسس المبدئية إلى أهداف وواجبات محددة تمهد للوصول إلى برنامج عمل وأدوات تنفيذ وخطة زمنية ذات مراحل . ولا شك أن مهمة كهذه لا تقع على عاتق فرد ، أو جماعة بل تستوجب التحديد والتخطيط والتنسيق والتنفيذ عبر هيئات ومؤسسات واتحادات ودور نشر . ولكن حسبي أن اكتفي باقتراح بعض المؤشرات العامة .

على أنني أحب أن أقول في البداية أننا ينبغي أن نعترف بموضوعية وأمانة وتواضع أننا لا نبدأ من نقطة الصفر ، لا نبدأ من فراغ ، لا نبدأ أمراً غير مسبوق . فما أكثر ما في وطننا العربي في مشرقه ومغربه من جهود جادة ، لامعة ، في مختلف الجوانب الثقافية ، تأكيداً للابداع الفكري العربي الوطني الديمقراطي التقدمي العقلاني ، وتصدياً للفكر الصهيوني الامبريالي الرجعي . بل ما أجدرنا أن نحيي مراكز ودور وأجهزة نشر عربية عامة وفلسطينية خاصة ، ما أجمل ما تقدمه من خدمات ثقافية تنويرية . بل ما أجدرنا ان ندرك بعمق أن كل نضال سياسي ، أو اقتصادي أو اجتماعي أو عسكري ، وان كل استشهاد في المعركة بيننا وبين الرجعية العربية ، والاحتلال الصهيوني ، والتبعية الامبريالية واشكالها المختلفة ، انما هو في الوقت نفسه نضال أعمق ، يكوّن النضال ضد الثقافة التي تفرزها وتستنبتها وتسعى لغرضها هذه الأفعى ذات الرؤوس الثلاثة .

وأعود إلى الاقتراح ببعض المؤشرات لوضع استراتيجية ثقافية في ضوء الاسس المبدئية التي ذكرتها من قبل يمكن أن تترجم بعد ذلك إلى برنامج عمل تفصيلي .

أولاً : العمل على تشكيل جبهة عربية للدفاع عن الثقافة القومية العربية ، تضم دور النشر العربية ، واتحاد الأدباء العرب ، واتحاد الصفحيين العرب واتحاد الجامعيين والمدرسين والاقتصاديين والاعلاميين والفنانين العرب ومختلف الاتحادات العربية المماثلة القطرية ، فضلاً عن لجنة الدفاع عن الثقافة القومية في مصر ، على أن تحرص هذه الجبهة على :

أ ـ أن تضع ميثاقاً ثقافياً وطنياً ديمقراطياً لمواجهة الثقافة الرجعية والامبريالية والصهيونية ، يلتزم به المثقفون العرب التزاماً عملياً في كل مجالات عملهم وأنشطتهم وابداعهم .

ب ـ ان تنسق الجهود الثقافية وتنميها في مواجهة مختلف المواقف والسياسات والممارسات الرجعية والامبريالية والصهيونية على المستوى القومي والمحلي .

ج ـ ان تقوم بمشروعات انتاجية مشتركة عامة أو متخصصة في مختلف مجالات الابداع الثقافي كاصدار كتب أو

مجلات أو انتاج أفلام أو انشاء فرق مسرحية أو تنظيم مهرجانات ثقافية أو حفلات موسيقية أو معارض فنية إبرازاً للابداع العربي الوطني الديمقراطي لا في البلاد العربية وحدها بل في العالم أجمع .

د ـ أن تقوم بتنظيم مؤتمرات متخصصة لوضع خطط نوعية للتصدي للفكر الرجعي الامبريالي الصهيوني في مجال :

ـ التعليم العام والتعليم الجامعي .
ـ الاذاعة الصوتية والمرئية .
ـ الفنون التشكيلية والفنون الأخرى .
ـ الاقتصاد الصناعي والزراعي .
ـ الفكر النظري . . . إلى غير ذلك .

ثانياً : المشاركة باسم هذه الجبهة بعد تشكيلها (أو باسم هذه الندوة إذا تأخر تشكيل هذه الجبهة) في مؤتمر المتابعة العالمية المعادية للامبريالية والصهيونية والعنصرية والرجعية الذي سينعقد في الجماهيرية الليبية في ١٥ مايو القادم ، وذلك لتنسيق الجهود بين جبهةالمثقفين العرب ومختلف المنظمات العالمية الوطنية والديمقراطية والاشتراكية لفضح ومواجهة الثقافة الامبريالية والصهيونية على المستوى العالمي .

ثالثاً : الاعداد لمؤتمر عربي أو عالمي حول « الدين والثورة الاجتماعية » لمواجهة السياسات والمؤتمرات وأشكال العمل التي تستخدم الاسلام والمسيحية استخداماً لخدمة الأهداف الرجعية والطائفية والامبريالية والصهيونية .

رابعاً : الاعداد لمؤتمر عربي لفتح ملف قضية الوحدة العربية ، بهدف مراجعة مفاهيمها المختلفة مراجعة نقدية في ضوء خبرة السنوات الثلاثين الماضية، ومساهمة في انضاج مفهوم للقومية العربية انضاجاً موضوعياً ، بعيداً عن المثالية والتعصب العرقي ، وتحديد أشكال جديدة للنضال القومي التوحيدي على أساس من الديمقراطية واحترام الاجتهادات الفكرية المختلفة والحرص على وحدة العمل بين هذه الاجتهادات في طريق الهدف المشترك .

خامساً : تشكيل لجنة عربية على المستوى القومي للنضال ضد القمع وللدفاع عن الحقوق الديمقراطية تكون تتويجاً للجان قطرية للهدف نفسه في كل بلد عربي ما أمكن ذلك ، وذلك للنضال الموحد من اجل الافراج عن المسجونين والمعتقلين السياسيين العرب ، والغاء مختلف التشريعات المقيدة للحريات .

سادساً : تشكيل لجنة عالمية للدفاع عن المسجونين الفلسطينيين في السجون الاسرائيلية ولفضح السياسات الاسرائيلية النازية العنصرية ضد الفلسطينيين أصحاب الأرض المغتصبة .

سابعاً : العمل على انهاء مقاطعة المؤسسات الثقافية والاتحادات المهنية المصرية كاتحاد الصفحيين واتحاد العمال والطلبة والاطباء الى غير ذلك دعماً للصراع الذي يتم داخل مصر ، وفي قلب هذه المؤسسات والاتحادات ضد اتفاقيات كامب دافيد وسياسة التطبيع .

ثامناً : تشجيع ونشر وتوزيع كافة أنواع انتاج الكتاب والمثقفين والفنانين المصريين المتعلق بمقاومة الثقافة الرجعية والصهيونية والامبريالية ، وخاصة ما يصدر منها عن لجنة الدفاع عن الثقافة القومية في مصر .

تاسعاً : تشجيع ونشر وتوزيع والاهتمام الجاد بكافة انواع انتاج الكتاب والمثقفين والفنانين الفلسطينيين في فلسطين المحتلة خاصة .

عاشراً : العمل على اصدار مجلة عربية سياسية ونظرية تتصدى أساساً للفكر الرجعي الصهيوني الامبريالي ، تصدياً على مستوى رفيع من العمق والجدية والموضوعية.

أحد عشر : اصدار مجلة أو أكثر للأطفال لمواجهة مجلات الاطفال التي تشيع القيم الرجعية والرؤية الامريكية للحياة ، فضلاً عن الاهتمام بكتاب الطفل العربي ، موضوعاً ومنهجاً واخراجاً فنياً .

ثاني عشر : العمل على اصدار مجلة علمية أو أكثر لاقامة منهج التفكير العلمي الموضوعي في مختلف نواحي الحياة .

ثالث عشر : التصدي وفضح الدور الذي تلعبه الجامعات والمراكز والمؤسسات ودور النشر الثقافية الأمريكية في مختلف البلاد العربية .

رابع عشر : التصدي النقدي للجرائد والمجلات العربية النفطية الرجعية وفضح ما تتضمنه وتشيعه من ايديولوجية تكرس التخلف وروح الاستهلاك واللاعقلانية والوعي الزائف ، وتبيض من صفحة الامبريالية الامريكية وتروج لمخططاتها فضلاً عن شرائها لأقلام بعض الكتاب والصحفيين العرب الذين لا تكتفي بمنحهم مرتبات عالية ، بل تحاول أن تكسب إلى صفحاتها بعض الاقلام المعروفة بوطنيتها وتقدميتها ، تغطية لايديولوجيتها المعادية للوطنية والتقدمية . . وما اجدر المثقفين والصحفيين العرب بمقاطعة العمل والكتابة في أمثال هذه الصحف والمجلات ، التي تنفث السموم وتحقق الغزو الثقافي الامبريالي الصهيوني بحروف عربية وبأقلام عربية .

على أنني قد أستبيح لنفسي في النهاية أن أقترح كذلك أن يختتم مؤتمرنا هذا أعماله باصدار نداء الى المثقفين العرب للاهابة بهم

للانخراط كل في حدود امكانيته وقدرته في النضال السياسي والاجتماعي والفكري والفدائي انخراطاً جاداً عملياً منظماً في مواجهة الرجعية والامبريالية والصهيونية والتصدي لمخططاتها ومشروعاتها المشبوهة ، وذلك بنشر الوعي الصحيح بحقيقة هذه الرجعية وهذه الصهيونية وهذه الامبريالية عامة والامريكية بوجه خاص للاهابة بالمثقفين العرب بالوقوف بيقظة وحسم ضد الساداتية التي لم تمت باعدام السادات . بل تنتعش في أكثر من بلد عربي تحت صيغ ومشروعات مختلفة ، وبالنضال ضد القواعد العسكرية الأمريكية في مصر ، في السعودية ، في عُمان ، في الصومال ، في السودان ، هذه القواعد العسكرية التي تشكل احتلالاً مباشراً جديداً لأجزاء من وطننا العربي ، للاهابة بالمثقفين العرب بشجب سياسات بعض الدول العربية التي تشكل تواطؤاً بل خدمة مباشرة للامبريالية الامريكية والصهيونية كسياسة الحكومة السعودية في مجال النفط والارصدة والتعاون العسكري مع الامبريالية الأمريكية للاهابة بالمثقفين العرب بالمشاركة في النضال الحاسم الحازم من اجل اسقاط نظم العمالة والرجعية وتحرير البلاد العربية تحريراً جذرياً من التبعية السياسية والاقتصادية والثقافية للامبريالية والصهيونية ، واقامة نظم وطنية ديمقراطية تكون قواعد لوحدة عربية ديمقراطية تقدمية ، يتحقق بها انتصار الثورة العربية ، واسهامها الحضاري الخلاق في النضال العالمي من اجل استكمال هزيمة الامبريالية والصهيونية على المستوى العالمي والغاء كافة أشكال الاستغلال والقهر والقمع والحروب العدائية ، وبناء عالم جديد متحرر متقدم ، تتحقق فيه وبه انسانية الانسان .